The problem of salvation according to Josiah Royce

Dr. Ghassan Alaa Al Deen*
Janet Abboud*

(Received 8 / 8 / 2019. Accepted 10 / 9 / 2019)

□ ABSTRACT □

This research deals with the new proposition presented by the American philosopher Josiah Royce to the problem of salvation, in which he tries to discuss the heated debate between the religious thinkers who limited the path of salvation to what is divine and divisive, and between the moral thinkers who viewed salvation and treated it as a human act above anything else. This is in order to put an end to such a supposed argument between them by means of revealing the harmonious dimension between religion and ethics which was absent from the minds of plenty of their followers.

Key words: salvation, revelation, divisive, duty

* **Assistant Professor, Department of Philosophy, Tishreen University, Lattakia, Syria**
* **Postgraduate student (PhD), Department of Philosophy, Tishreen University, Lattakia -Syria**

إشكالية الخلاص عند جوزايا رويس

د. غسان علاء الدين*

جانيت عبود**

(تاريخ الإيداع 8 / 8 / 2019. قبل للنشر في 10 / 9 / 2019)

□ ملخّص □

يعنى هذا البحث بالوقوف على الطرح الجديد الذي قدمه الفيلسوف الأمريكي جوزايا رويس لمشكلة الخلاص، والذي حاول من خلاله الوقوف على السجال المحتدم بين أصحاب الفكر الديني الذين حصروا طريق الخلاص بما هو إلهي ومفارق، وبين وأصحاب الفكر الأخلاقي الذين نظروا إلى الخلاص وتعاملوا معه على أنه فعل إنساني قبل كل شيء. وذلك بهدف وضع حدّ لهذا السجال المفترض بينهما، عبر الكشف عن البعد التوافقي بين الدين والأخلاق، والذي كان غائباً عن أذهان الكثير من أتباعهما.

الكلمات المفتاحية: الخلاص، الوحي، المفارق، الواجب.

* – أستاذ مساعد ، قسم الفلسفة، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

** – طالبة دراسات عليا (دكتوراه)، قسم الفلسفة، جامعة تشرين، اللاذقية.

مقدمة:

حظيت فكرة الخلاص باهتمام الفكر الإنساني منذ أقدم العصور، كما شغلت حيزاً واسعاً في العديد من الدراسات الفلسفية والدينية والأخلاقية على حدٍ سواء، حيث شهد تناولها تبايناً واختلافاً وصل إلى حدّ المغايرة في معظم الأحيان، حتى بتنا نتحدث عما يسمى بمشكلة الخلاص.

وقد تعددت المقاربات واختلفت التصورات التي قدمها الفلاسفة والمفكرون حول مشكلة الخلاص، وذلك تبعاً لتعدد الرؤى واختلاف زوايا النظر التي أطل بها كل على موضوعه، والتي غالباً ما كان يحددها النسق الفلسفي أو الأخلاقي، فضلاً عن الإنتماء العقائدي الذي يحكم فلسفة هذا الفيلسوف أو فكر ذاك المفكر الديني أو الأخلاقي.

ويعد الفيلسوف الأمريكي جوزايا رويس ممثل الهيغلية الجديدة في أمريكا أحد أبرز الفلاسفة الذين خصوا مشكلة الخلاص باهتمام لافت في دراساتهم الفلسفية. إذ يمكن القول إنه حصرها في سعير السجال المحتدم بين أصحاب الفكر الديني من جانب، وأصحاب الفكر الأخلاقي من جانب آخر، ساعياً من وراء ذلك وضع اليد على حلّ توافقي ينهي من خلاله حالة السجال هذه.

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية البحث في أنه يسلط الضوء على إشكالية الخلاص كما تعامل معها المفكر الأمريكي جوزايا رويس وما انطوت عليه من قضايا إشكالية، بغرض الوقوف على طبيعة الحل الذي قدمه لهذه القضية، ومحاولة الكشف عن الأسس التي انطلق منها في تقديم هذا الحل.

كما يهدف البحث الوقوف على الأسباب التي جعلت رويس ينظر نظرة توافقية تجمع بين أصحاب الفكر الديني وأصحاب الفكر الأخلاقي فيما يتعلق بمشكلة الخلاص.

منهج البحث:

لايمكن لأي بحث أن يحقق أهدافه المرجوة ما لم يُعَالج وفق منهجية من المفترض أن تكون ملائمة لموضوعه، وذلك انطلاقاً من أن موضوع البحث هو الذي يحدد المنهج المفترض اتباعه في هذا البحث أو ذاك. وعليه سنلجأ لإنجاز بحثنا هذا إلى منهج التحليل النقدي دون استبعاد اللجوء إلى مناهج أخرى قد تفرضها مجريات البحث، فضلاً عن التغيرات التي قد تطرأ على موضوعه خلال مسيرة إنجازه.

أولاً- الدين ومشكلة الخلاص:

غالباً ما يربط الفهم العام خاصة في الغرب فكرة الخلاص بالديانة المسيحية على وجه التحديد، إلا أن رويس وخلافاً لذلك لايقرّ بوجوب هذا الربط، أو لنقل يأبى هذا التخصيص، لأن فكرة الخلاص برأيه لا ينفرد بها دين دون آخر، فقد كانت حاضرة في جميع الأديان على اختلافها وتنوعها، فضلاً عن اختلاف العصور التي وجدت فيها هذه الأديان، إذ يمكن تلمس معالمها، ووضع اليد عليها في العديد من الأديان البدائية، فقد كانت حاضرة مثلاً في الديانة البوذية وغيرها من الديانات البدائية رغم عدم معرفة هذه الديانات شيئاً عن المسيحية، ولذلك عندما يستخدم رويس كلمة الخلاص في إطار دراساته الفلسفية فهو يمضي بهذا الاستخدام إلى ما هو أبعد مما تشير إليه هذه الفكرة في الديانة المسيحية أو غيرها من الديانات الأخرى بشكل مستقل ومنفرد.

لقد تجنب رويس في دراساته ومحاضراته التي عالج فيها مشكلة الخلاص وضع تعريف محدد للدين، حرصاً منه على ألا يقترب في هذا التعريف –فيما لو وضعه– من عقيدة دينية دون أخرى، إيماناً منه بأن الدين ينبغي أن يكون إنسانياً بعيداً عن الطقوس أو المعتقدات البالية التي تحجر العقول، كي يكون بمستطاع كل فرد اكتشافه بنفسه [1]، وانطلاقاً من ذلك سارع للبحث عن السمة الأساسية الغالبة على الأديان جميعاً، فخلُص إلى نتيجة ترى أن ما يوحد بين مجمل الأديان والموضوعات الدينية على اختلافها وتنوعها هي "الاهتمام بمشكلة خلاص الإنسان" [2]، وكدليل على ذلك ضرب لنا رويس مثالاً وضح فيه اشتراك البوذية والمسيحية بهذه المشكلة، وفي هذا يقول: "تشترك الأديان الكبرى كالبوذية والمسيحية في الاهتمام بمشكلة خلاص الإنسان، ويُعبَّر دائماً عن هذا الاهتمام بالقول إن هاتين العقيديتين تهتمان بتحرير البشر من وزر كبير، ومن النقص والخرافة والشر..." [3].

قبل المضي قدماً في الحديث عن مشكلة الخلاص كما حددها رويس عند كل من رجال الدين ورجال الأخلاق، يتعين علينا أن نتوقف ولو بعجالة على معنى الخلاص كما أورده رويس، كيما يتسنى لنا الحديث عن معالجته لهذه المشكلة في ضوء هذا التحديد.

انطلق رويس في تحديده لفكرة الخلاص من النظر إليها والتعامل معها على أنها تعبيراً عن حاجة ورغبة إنسانية، فهي برأيه كغيرها من الحاجات والرغبات الإنسانية الأخرى، فكما أن الإنسان يختزن في داخله حاجات ورغبات من قبيل الحاجة إلى الطعام والشراب بالإضافة إلى الحب والصداقة وإلى ما هنالك من حاجات إنسانية أخرى، فهو في الآن نفسه يحمل في داخله حاجة تدعى (الحاجة إلى الخلاص). لكن المؤمنون بهذه الحاجة على ما يرى رويس ينظرون إليها ويتعاملون معها بوصفها الحاجة الأكثر أولوية وأهمية بين حاجاتهم، إذ تعني بالنسبة لهم السعي للحصول على بعض اللآلئ غالية الثمن التي يكون الإنسان مستعداً للتضحية من أجلها بكل ما يملك مقابل الحصول عليها [4].

واستناداً لهذه النظرة حدد رويس الحاجة إلى الخلاص بتعبير جامع وبسيط يتفق عليه كما يزعم كل الذين يؤمنون بهذه الحاجة سواء أكانوا متدينين أم أخلاقيين، فلاسفة أم شكاك، أنبياء أم مصلحين، هذا التعبير تتشاطره فكرتان تؤديان المعنى المطلوب، وذلك على النحو الأتي:

الفكرة الأولى: هي أن هناك هدفاً للإنسان في الحياة، يعد الأكثر أهمية من بين أهدافه الأخرى وهو بمثابة الخير الأعلى بالنسبة إليه مقارنة بالخيرات الجزئية. أما **الفكرة الثانية**: هي أن الإنسان وفقاً لطبيعته يعيش في خطر فقدان هذا الهدف أو الخير الأعلى، فتصبح حياته فاشلة، لا معنى لها بسبب بعده عن هذا الهدف، ولذلك فهو بحاجة ماسة للتخلص من هذا الخطر [5].

وبعد أن حدد رويس معنى الخلاص معتبراً إياه مسألة عامة لا تقتصر على دين دون أخر فإذا به يسعى جاهداً لإزاحة النقاب والكشف عن الطرق والسبل التي انتهجها أصحاب الفكر الديني بغية الفوز بالخلاص، فوجد أن غالبيتهم ربط

---

1 – رويس، جوزايا، الجانب الديني للفلسفة، نقد لأسس السلوك والإيمان، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص7.

2 – رويس، جوزايا، مصادر البصيرة الدينية، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2007، ص14.

3 – المصدر السابق، ص20.

4 – رويس، مصادر البصيرة الدينية، مصدر سابق، ص21–22.

5 – المصدر السابق، ص22.

طريق الخلاص بما هو مجاوز ومفارق، على اعتبار أن الحاجة للخلاص وطرق الوصول إليها لن تتأتي بالنسبة إليهم إلا من الخارج (1)، أي مما هو مجاوز لقدرات الإنسان، وذلك عبر الارتباط بما هو إلهي ومفارق. ولكن كيف يمكن تحقيق هذا الارتباط؟

فالمتدين وفق رويس يعتقد "أن الإنسان يتعلم حاجته للخلاص من خلال معرفته بالله، ومعرفة الفرق بين إرادته الطبيعية والإرادة الإلهية. ولا يعرف طريق الخلاص إلا بمعرفة العملية التي يريد الله خلاصه بها. ويكتسب هذه المعارف كلها حين يكشف الله عن نفسه وإرادته وخطته للخلاص. ولا يمكن أن يعرف الإنسان هذه الأشياء كلها بنفسه، ولا مصدر لديه لمعرفتها إلا الوحي" (2).

نستنتج من خلال القول السابق أعلاه أن بلوغ الخلاص بالنسبة لأصحاب الفكر الديني وبحسب رويس لا يمكن أن يتحقق بأي شكل من الأشكال إلا بمعرفة الإلهي والولوج إلى عالمه، ومحاولة الانضواء تحت ديثاره، ولكن معرفة الإلهي لن تكون متاحة إلا بوجود وحي، باعتباره يمثل حلقة الوصل بين ماهو إنساني وما هو إلهي، أي يمثل السبيل الذي يمكن أن يفتح أمامنا باب الخلاص على مصراعيه. وإننا لنلحظ في هذا الأمر إشارة واضحة وجلية لا لبس فيها إلى ما يستبطنه أصحاب الفكر الديني من رفض ونفي لأية فاعلية إنسانية يمكن أن تلعب دوراً حتى لو كان ثانوياً في تحقيق الخلاص سواء على المستوى الفردي أو الاجتماعي، فضلاً عن رفض أي دور للإرادة والعقل الإنسانيين في هذا المجال.

لكن رويس لن يترك مثل هذا الاعتقاد السائد لدى أصحاب الفكر الديني حول فكرة الخلاص يمرّ مرور الكرام دون فحص ومساءلة، مستخدماً في ذلك أسلوب النقد الناعم والمبطن، صحيح هو لا يبدي رفضاً صريحاً ومباشراً لفكرة أن يكون الوحي طريقاً للخلاص، لكننا نراه يحاول استخدام فكرة الوحي ذاتها لتوجيه النقد إلى من يؤمن بالوحي كالطريق أوحد للولوج إلى العالم الإلهي، وكأن لسان حاله يقول من "فمك أدينك"، زد على ذلك محاولاته المتكررة إفراغ الوحي من أي قيمة أو دور يمكن أن يلعبه في تحقيق الاتصال مع العالم الإلهي ما لم يستمد هذا الوحي –إن وجد– أساسه ومشروعيته مما هو إنساني. ويتضح ذلك من خلال التساؤل الآتي الذي يمكن توجيهه إلى أصحاب الفكر الديني: إذا كنتم تؤكدون على الوحي كسبيل أوحد للإتصال بالإلهي، فهلا لكم أن تنبؤنا وتطالعونا عن كيفية معرفة الإنسان لهذا الوحي، وعن مقدرته في التأكد من صحته؟ فهل يحق لنا القول بوجود وحي آخر يعرفنا على الوحي الإلهي ويخبرنا بصحته؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن يخبرنا عن صحة هذا الوحي الآخر، أهو وحي ثالث؟ وهل نستطيع أن نستمر في ذلك إلى ما لانهاية؟ ثم ألا يؤدي بنا الاستمرار في هذا التسلسل إلى ما يسمى ببرهان الخلف أو التناقض؟

يقول رويس محاولاً إنهاء حالة التناقض الناجمة عن القول بالوحي كطريق إلى عالم الغيب: "إن شئت ألا تجعل وحياً معيناً يستمد صحته من وحي آخر أسبق منه، وهكذا إلى ما لا نهاية، فلا بد من أن تفترض مسبقاً أن هناك وحياً كائناً في مكان معين يستمد صحته وأصالته من داخلك ومن نورك الباطني ومن معرفتك الشخصية بطبيعة هذا الكائن" (3). ونحن هنا بدورنا نتساءل ألا يوحي لنا هذا القول بأن معرفة الإنسان بالوحي إن تحققت لا تكاد تخرج عن نطاق الطبيعة الإنسانية. ثم ألا يحق لنا المضي مع رويس والقول بأن امتلاك الإنسان لهذا النوع من المعارف ينطوي على الادعاء

1 – المصدر السابق، ص26.

2 – المصدر السابق، ص26.

3 – رويس، مصادر البصيرة الدينية، مصدر سابق، ص28.

بامتلاكه معرفة تشمل طبيعة جميع الأشياء. وامتلاك الإنسان لهذه المعرفة بوصفها تمثل قيمة له ولخلاصه، يدفعه لوصفها بالإلهية بالمعنى المألوف للكلمة [1]. هذا يعني أن كلمة إلهي لا تشير بالضرورة إلى كل ما هو مفارق ومجاوز للإنساني بالمعنى التقليدي لكلمة المجاوزة والمفارقة، إذ أن مثل هذه الكلمات تتخذ عند رويس بعداً آخر يختلف تماماً عما يأخذه عند أصحاب الفكر الديني. وهذا ما سنحاول الوقوف عليه في الفقرة الأخيرة من هذا البحث.

ثانياً- الأخلاق ومشكلة الخلاص:

رأينا كيف حصر أصحاب الفكر الديني عملية الخلاص في الارتباط بما هو إلهي مستندين في ذلك على الوحي، كما ألمحنا إلى طبيعة النقد الذي وجهه رويس لهم معتبراً أن الوحي إذا ما صح القول بأنه يمثل طريقاً لولوج الإنسان إلى العالم الإلهي لا يمكن أن يكتسب مشروعيته ما لم يرتبط بما هو إنساني. والآن سنحاول الوقوف على مشكلة الخلاص عبر سحبها إلى ميدان آخر وهو الميدان الأخلاقي. وهنا نتساءل هل يؤمن أصحاب الفكر الأخلاقي بحاجة الإنسان للخلاص كما هو الحال عند أصحاب الفكر الديني، وإن كان لديهم مثل هذا الإيمان كيف نظروا إلى هذه الفكرة وتعاملوا معها، وما هي الطرق التي اعتمدوها لتحقيق الخلاص؟

إن الوقوف على إجابة للسؤال السابق تقتضي منا الإلماح إلى طبيعة العلاقة بين أصحاب الفكر الديني من جانب وأصحاب الفكر الأخلاقي من جانب آخر. يقول رويس موضحاً طبيعة هذه العلاقة: "من السهل إدراك مدى الاختلاف بين رجل الدين والأخلاقي، ولعنة كل منهما للآخر، على الرغم من اتفاقهما على حاجة الإنسان للخلاص، وعلى المخاطر التي يواجهها الإنسان الطبيعي، وعلى المسلمتين اللتين يتأسس عليهما الخلاص" [2]. إذاً نلاحظ من خلال قول روس أن العلاقة بين المتدين والأخلاقي ليست ثابتة، بل تتسم بالتأرجح، إذ "كان هناك دائماً نوع من التوتر بين اهتماماتهما[3] فالبرغم من وجود اتفاق بينهما حول وحدة الهدف الأساسي، على اعتبار أن كل منهما يؤمن بحاجة الإنسان للخلاص، من خلال الإقرار بالمسلمتين اللتين حدد بهما رويس معنى الخلاص فكلاهما يؤكد على وجود خير أو مثل أعلى في الحياة ينبغي على جميع الناس الوصول إليه أملاً وإيماناً منهم بالخلاص، إلا أنهم يختلفون بعد ذلك، ولكن على ماذا يختلفون، وما شكل وطبيعة هذا الاختلاف؟

لقد حاول رويس تحديد أوجه الاختلاف بين المتدين والأخلاقي من خلال تحديده لنقاط الارتكاز التي تقوم عليها كل من القيمة الأخلاقية والدينية قائلاً: "إن القيمة الأخلاقية ترتكز على فكرة الواجب وتدور حولها...وتجعل الفعل محور اهتمامها، فتقول دائماً أفعل كذا. أما القيمة الدينية فتتركز على معنى الحاجة، وإذا ما تم إشباع الحاجة، يتم البحث عن الذي أشبعها أو يمكن أن يشبع الحاجات، فيسعى الاهتمام لطلب المساعدة أو ينتظر السيد أو يستمتع بوجود الخلاص[4]، في الحقيقة أن رويس يحاول من خلال هذه المقولة أن يحدد طريق الخلاص بالنسبة للأخلاقي وذلك عبر الوقوف على طبيعة الخلاف الجوهري بينه وبين رجل الدين، فإذا كان هذا الأخير ينظر إلى الخلاص بوصفه تعبيراً عن حاجة إنسانية، مستعيناً على إشباعها بقوى خارجية، فإن الاخلاقي يتعامل مع الخلاص على أنه أحد واجبات الإنسان العليا، وبالتالي ينبغي السعى لتحقيقه بجهد ذاتي عبر مجموعة من الأفعال الملائمة، دون انتظار أي عون أو

1 - المصدر السابق، ص28-29.

2 - رويس، جوزايا، مصادر البصيرة الدينية، مصدر سابق، ص121.

3 - رويس، جوزايا، فلسفة الولاء، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2002، ص99.

4 - رويس، جوزايا، مصادر البصيرة الدينية، مصدر سابق، ص118.

مساعدة خارجية، إذ ينبغي على الإنسان الاعتماد على ذاته بالدرجة الأولى، لأنه ليس بمقدوره تجاوز قدراته الإنسانية التي تنحصر في مجرد العمل دون الالتفات إلى درجة هذا العمل من حيث السهولة أو الصعوبة. وهذا في اعتقادنا يعبّر عن رفض قاطع من قبل الأخلاقي لكل ما يجاوز طبيعتنا الإنسانية. وكأن لسان حاله يردد القول: "توجد لؤلؤة غالية الثمن، فلماذا تبيع كل ما تملك لشرائها بينما بإمكانك الحصول عليها بطبيعتك الفعلية وبالقيام بجهد مناسب؟ إذ يستطيع الواجب القيام بهذا الجهد...وكيف لا نفعل الصواب إذا كان كامناً فينا ونستطيع تحقيقه ويكفي لإشباع حاجتنا العميقة؟ ولا داعي للصراخ طلباً للمعونة من أعلى، فتستطيع تحقيق الخلاص بنفسك إن شئت تحقيقه، وليس هناك شيء غامض، فكل شيء في مقدورك تحقيقه" [1] إذن بات الآن واضحاً أن الخلاف بين رجل الدين ورجل الأخلاق ينصب على طرق الوصول إلى الخلاص، فالأول يُعول على الفعل الإلهي، في حين أن الثاني يعتمد على الفعل الإنساني، ولكن ما مبرر هذا الخلاف بعد وجود اتفاق حول الهدف الأساسي أعني حول قيمة الخلاص في حياة الإنسان؟

إن الحديث عن سبب الخلاف الحاصل بين رجل الدين ورجل الأخلاق يعيدنا إلى المسلمة الأولى من المسلمتين اللتين تم تحديد معنى الخلاص على ضوئهما، تلك المسلمة التي تقول بوجود هدف أو مثال أعلى في حياة الإنسان. صحيح أن كل من طرفي الخلاف يتفقان على ضرورة وجود مثال أعلى في الحياة الإنسانية، إلا أنهم يختلفون بعد ذلك حول طبيعة هذا المثال وكيفية وتحديده، ومن المرجح أن هذا الاختلاف حول المثل الأعلى هو السبب الرئيس في اختلاف طرق الوصول إلى الخلاص.

فإذا كان المتدين يسعى لوضع مثاله الأعلى بشكل منفصل، وبمعزل عن العالم المادي والواقعي متخذاً من الملأ الأعلى مسكناً له، فلا شك أن سبيل الخلاص لن يكون ممكناً إلا بولوج الإنسان لعالم الغيب والشهادة، ووصوله إلى سدرة المنتهى، أو بعبارة أخرى إن تحقيق الخلاص لا يتم إلا عن طريق أفعال قوة إلهية، تسعى لخلاص البشرية بأفعالها. فالفعل الإلهي وحده المنقذ، ودونه لا يوجد إلا الهلاك[2]، وإذا كان الأخلاقي بالمقابل يستمد مثاله مما هو كائن، وإذا كان لسان حاله يقول "عليك أن تذهب إلى الواقع، لتستدل منه على مفهومك عن الواجب، فلا يجب أن تقوم الأخلاقية على الفراغ، ولا بد لها من أساس من الواقع الطبيعي" [3]، فلا شك أن سبيل الخلاص سيكون رهناً بأفعال إنسانية تتجسد في هذا الواقع، فالأخلاقي "يؤكد أن الاهتمامات الدينية التي تتجه نحو البحث عن أشياء غامضة لا أمل في الحصول عليها تشكل عقبة ضخمة تعترض قيام حياة اخلاقية صحيحة وجادة، فيرفض للأبد كل الشكوك والمخاطر، ويرى أن الحل الوحيد يكمن في العمل والنشاط وبذل الجهد"[4]، وكأن بالأخلاقي يريد أن يجعل من مثله الأعلى قاعدة عملية للسلوك [5]. وباختصار يمكن القول إن رجل الدين يضع مثله وفقاً للوجوب بعيداً عما هو كائن، أما الأخلاقي فإنه يضع مثله انطلاقاً مما هو كائن وواقع.

1 – رويس، جوزايا، مصادر البصيرة الدينية، مصدر سابق، ص120.

2 – رويس، جوزايا، الجانب الديني للفلسفة، مصدر سابق، ص121.

3 – المصدر السابق، ص42.

4 – رويس، جوزايا، مصادر البصيرة الدينية، مصدر سابق، ص121.

5 – رويس، جوزايا، الجانب الديني للفلسفة، مصدر سابق، ص124.

ثالثاً- مشكلة الخلاص بين الدين والأخلاق:

لقد اتضح لنا من خلال الوقوف على رأي كل من المتدين والأخلاقي حول طريق تحقيق الخلاص أن الخلاف بينهما وصل إلى أشده، فإذا كان رجل الدين قد تمسك في نشدانه للخلاص وتوقه إليه، بما هو مفارق وإلهي، مستبعداً العالم الواقعي من حسبانه، نافياً بالوقت ذاته أي دور للطبيعة الإنسانية في ذلك، وإذا كان الأخلاقي قد ذهب إلى اعتبار الطبيعة الإنسانية ممثلة بالفعل الإنساني السبيل الأوحد لتحقيق الخلاص رافضاً في الوقت ذاته اللجوء في هذا الأمر إلى ما هو إلهي ومفارق، فالثابت أن جوزايا رويس اعتبر أن نظرة كل منهما للخلاص وطريق تحقيقه نظرة أحادية، إذ أن كلاهما قال بجزء من الحقيقة وأغفل الجزء الآخر منها.

إن ما يعيبه رويس على أصحاب الفكر الديني ليس حديثهم أو تمسكهم بالفضل الإلهي لتحقيق الخلاص، بل نظرتهم للمفارق على أنه مستقل ومنفصل عن كل ما هو إنساني، هذا الفهم أدى بشكل أو بأخر إلى إهمال وتهميش دور الفعالية الإنسانية في تحقيق الخلاص، وكأن هذا الأخير هبة تأتيهم من الخارج وما عليهم إلا انتظار تعاليم معينة تصلهم عبر الوحي للحصول عليه. وبالمقابل فهو لا يأخذ على الأخلاقي اعتماده على الفعل الإنساني لتحقيق الخلاص، وإنما رفضه بشكل قاطع لكل ما هو مفارق ومجاوز ونفي أي دور له في ذلك، هذا التجاهل الذي كان نتيجة اعتبارهم أن المفارق إن كان له وجود لا يمت بأي صلة للإنساني .

مما تقدم نلاحظ أن كل من رجل الدين ورجل الأخلاق يشتركان في الفهم الخاطئ لمعنى الإلهي أو المفارق، ولربما كان هذا دافعاً رئيساً لوصفهم من قبل رويس بالجهلة. ورغم صعوبة وجسارة المهمة في إيجاد حل توافقي بين الدين الأخلاق[1]، إلا أن رويس لم يألو جهداً في محاولة إيجاد نوع من التقارب بين تصور كل من المتدين والأخلاقي لفكرة الخلاص، وذلك عبر تقديم فهم جديد لمعنى المفارقة من شأنه أن يسهم في تحقيق نمط من التكامل الفلسفي بينهما بحيث يؤدي إلى نظرية موحدة لمشكلة الخلاص تحتوي وتستوعب طرفي النزاع، ولعل هذا ما قصد إليه من تساؤله حول ما إذا كان "هناك نمط حياة يتسق مع كل من الدوافع الأخلاقية والدينية؟ وهل توجد وسيلة نوفق بها بين حاجتنا للفضل الإلهي الذي يحقق خلاصنا ونداء الحياة الأخلاقية لبذل الجهد والقيام بواجبنا؟" [2]. والسؤال هنا إلى ما يعزى هذا الفهم الخاطئ عند كل من المتدين والأخلاقي لمعنى المجاوز أو المفارق، وما هو المعنى الجديد الذي قدمه رويس له، وهل يمكن من خلال هذا المعنى الجديد الجمع بين طرفي النزاع؟

يقول رويس"إن مدة وعينا أو الفترة الزمنية الخاصة به، وقدرته على إدراك الوقائع العديدة في لحظة فردية من حياتنا، تعد محدودة بزمن معين، وبعدد الوقائع التي نستطيع إدراكها وتمييزها والتعرف عليها، وبالفترة الزمنية التي نستطيع أن نواجهها مباشرة لإدراك تتابعها وحركاتها. ويعد هذا التحديد للفترة الزمنية لوعينا أمراً ملازماً لنمط حياتنا الواعية"[3].

يحاول رويس أن يخبرنا من خلال هذا القول أنه ليس بمقدوره الإنسان الانتباه لأشياء العالم وموضوعاته بمجملها وإدراك الروابط فيما بينها دفعة واحدة، لأن نمط وعيه محدود فهو لا يدرك سوى جزء يسير من هذه الأشياء والموضوعات في لحظة زمنية محددة. ولعل هذه النظرة الضيقة للحياة كانت سبباً رئيساً لنشوب الخلاف بين المتدين والأخلاقي حول الخلاص وسبل تحقيقه. إذ أن ضيق النظر عند رجل الدين دفعه لافتراض قوى مفارقة تتجاوز الحدود

---

1 - رويس، جوزايا، فلسفة الولاء، مصدر سابق، ص199.

2 - رويس، جوزايا، مصادر البصيرة الدينية، مصدر سابق، ص124.

3 - المصدر السابق، ص171.

الإنسانية بعيدة كل البعد عن واقعنا كي تعينه على تحقيق خلاصه، كما دفع رجل الأخلاق للوقوف عند حدود وعيه اللحظي والمحدود، رافضاً اللجوء إلى أية قوى مجاوزة لقدراته، لاعتقاده بأن كل ما هو مجاوز ومفارق بعيد عن حياتنا لا صلة له بها على الإطلاع، وهو شيء غريب عنا.

صحيح أن ضيق الأفق هو جزء من طبيعة الإنسان، إلا أن هناك جزءاً آخراً في طبيعته لا يقنع بمجرد الرؤية الضيقة والمحدودة الأمر الذي يدفعه للتمرد على وعيه المحدود بغية الحصول على نظرة أكثر اتساعاً وشمولية، وفي هذا يقول رويس: "تفرض علينا طبيعتنا أن ننظر للعالم من خلال مجموعة من الشقوق التي سريعاً ما يتم إغلاقها، ولذلك نشعر بالضيق، ونسعى لرؤية الأشياء ليس عن طريق هذه الشقوق اللحظية أو عبر الجدران التي تحجب رؤيتنا للأشياء ككل. نريد نظرة شاملة تبين لنا رؤية الأشياء ووحدتها في الوقت نفسه. ولا يُعد هذا التمرد على نمط وعينا اللحظي مجرد نوع من الفضول أو رغبة في الحصول على ثروة من الأشياء المتنوعة، وإنما جزءاً من طبيعتنا" [1]. وليس هذا التمرد على الصورة الضيقة لوعينا حسب رويس إلا دليلاً على وجود صورة أكثر اتساعاً وشمولية من الوعي تضم بالوقت ذاته كل أنماط الوعي المحدود واللحظي، تشكل مرجعاً وقاضياً عادلاً قائماً بالفعل[2].

فليس هناك وفقاً لرويس انفصالاً بين الوعي المحدود والوعي الشامل، إذ لا وجود لوعي محدود دون وعي أوسع يشمله، ولا وجود لوعي شامل دون وعي محدود يعبر عنه. هذا يعني أن كل منهما يستمد وجوده من الآخر، وبما أن وعينا المحدود يتمتع بوجود واقعي هذا يعني بحكم العلاقة القائمة بينهما أن وجود الوعي الشامل لا يقل واقعية عن وجود الوعي المحدود.

وإذا كان ثمة فرق بين صورة الوعي المحدود وصورة الوعي الأوسع نستطيع أن نعبر عنه بتسمية الصورة المحدودة بالصورة الإنسانية للوعي، وصورة الوعي الأوسع فائقة للإنسان، أو تفوق مستوى البشرية [3]، ولكل من ينكر وجود مثل هذا الوعي الشامل نقول له على حدّ تعبير رويس إن إنكارك لوجود مثل هذا الوعي ليس إلا لجوءاً لهذا الوعي ذاته، إذ يعني الحكم بعدم وجود نظرة أوسع أو فكر نهائي الحكم بأن النظرة الأوسع تلاحظ عدم وجود نظرة أوسع، ولا يرى الفكر النهائي وجود مثل هذا الفكر النهائي، وبذلك يعد هذا الحكم متناقضاً مع ذاته [4]

وبالبناء على ما سبق نستطيع القول أن معنى المفارق والمجاوز اكتسب عند رويس معنى جديداً يختلف تماماً عن الفهم التقليدي له، فإذا كانت كلمة المفارق والمجاوز للطبيعة تشير في أذهان الكثير منا إلى وجود خارجي مستقل عن العالم الأرض، وإلى عالم مبتور الصلة ومقطوع العلاقة مع الإنسان، فإن معنى المفارق أصبح مع رويس يشير إلى عالم أقرب ما يكون إلى الإنسان، عالم لا نحتاج للجوء معه إلى معجزات تثبت وجوده، ولا إلى دلالات وبحوث نفسية ثبات واقعيته [5]. وإذا ما أخذ المتدين والأخلاقي فكرة المجاوزة والمفارقة بهذا المعنى الرويسي إن صح التعبير، لتلاشت نقاط الاختلاف بينهما حول مشكلة الخلاص، فلا يعود المتدين يفر من عالمه نحو عالم مجهول، ولا يرفض الأخلاقي من المجاوز بحجة أنه غريب عنه.

---

1 – رويس، جوزايا، مصادر البصيرة الدينية، مصدر سابق، ص171-172.

2 – رويس، جوزايا، العالم والفرد، المفاهيم الأربعة التاريخية في الوجود، المجلد الأول، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2008، ص8.

3 – رويس، جوزايا، مصادر البصيرة الدينية، مصدر سابق، ص174.

4 – المصدر السابق، ص86.

5 – رويس، جوزايا، مصادر البصيرة الدينية، مصدر سابق، ص177.

الاستنتاجات والتوصيات:

مما تقدم نسطيع القول إن معالجة رويس لمشكلة الخلاص تندرج في إطار سعيه لرسم الخطوط الأساسية لمذهبه المثالي الذي سعى من خلاله إلى محاولة التوفيق بين النظرة المثالية والنظرة الواقعية للعالم، عبر فتح الأفق أمام النظرة الواقعية للعالم بجعل أصحابها يقرون بضرورة وجود المجاوز والمفارق بالمعنى الذي قدمه رويس، فضلاً عن تخليص النظرة المثالية للعالم من تحليقهما في السماء، بجعلها لا تقتصر على التأمل فقط، بل وترتبط بالواقع أيضاً، وذلك من خلال وضع مذهب مثالي معدّل أقرب ما يكون إلى المثالية الهيغلية التي تقر بعقلية الواقعي، وواقعية العقلي. وليس أدل على ذلك من تشبيه رويس لوجود العالم بوجود الورقة المالية، التي لاتكمن قيمتها في وجودها المادي فقط، وإنما في عقل الفرد الذي يتعامل معها، وفي الفكرة التي ترمز إليها في عقله، وفي العقل الكلي لعالم التجارة.

خلاصة القول: إن مثالية رويس المعدّلة تحاول الجمع بين اهتمامات رجال الدين واهتمامات رجال الأخلاق فيما يتعلق بموضوع الخلاص وسبل تحقيقه، وذلك بتخليصهما من ضيق الأفق الذي تعاملا به مع مشكلة الخلاص، بحيث يدرك أصحاب الفكر الديني أهمية الواقعي ودوره في تحيق الخلاص، على اعتبار أن الخلاص يبدأ مما هو إنساني ليمضي إلى ما هو مفارق له، كما يدرك أصحاب الفكر الأخلاقي أهمية الفضل الإلهي وصلابة وجوده، ودوره في تحقيق الخلاص إلى جانب الفعل الإنساني.

المصادر والمراجع:

1. رويس، جوزايا، الجانب الديني للفلسفة: نقد لأسس السلوك والإيمان، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المجلس الأعلى للثقافة، 2000.

2. رويس، جوزايا، العالم والفرد، المفاهيم الأربعة التاريخية في الوجود، المجلد الأول، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2008.

3. رويس، جوزايا، فلسفة الولاء، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2002.

4. رويس، جوزايا، مصادر البصيرة الدينية، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2007.